فكر

اللغة والتفكير[1]

تعلمنا في المدارس النظر إلى اللغة باعتبارها جملة من البنى الصرفية. فإذا عرفت كيف تصرف الفاعل والمفعول، إذا عرفت الماضي والمضارع والأمر، إذا عرفت كيف تجمع بين الأصوات عندما تقول «رجل» تشكل ما يفيد كلمة رجل، هذا جانب ليس له علاقة بعلوم اللغة الحديثة في واقع الأمر.

فعلوم اللغة الحديثة تتجاوز مفهوم اللغة كنظام للأصوات، أو البنى الصرفية. اللغة كسلطة وخطاب. فكل ثقافات الكون تقوم على جملة من المنظومات العقلية والمفهومية. ومنظومات تحدد علاقة الكائن بالكون (الوجود الروحي والانطولوجي للكائن) بقدر ما تحدد علاقته بالآخرين (الوجود الاجتماعي، أي السياسي في الخلاصة الأخيرة). هي التي تخلق، في نهاية الأمر، كل ما يمكن أن يوصف بالوجود الموضوعي للإنسان في إطار جماعة ما.

الفكرة الأساسية التي أود التركيز عليها: اللغة ليست نظاما صوتيا، وليست مجرد بنى صرفية. اللغة خطاب، ومنظومة قيم ومفاهيم. عندما يتعلم فرد ما، لا يتعلم في الواقع هذه اللغة أو تلك بقدر ما يستبطن (يدّوت) مجموعة القيم والمفاهيم التي تنطوي عليها. هذه هي الفكرة الأولى.

لذلك في منح التفكير ما يوصف به عادة من قابلية لتجاوز الحدود مبالغة غير محسوبة. فلا أحد يفكر خارج المنظومة المعرفية لهذه اللغة أو تلك. وكل محاولة لتجاوز المنظومة تعني في التحليل الأخير كسرها. وإذا كان تعبير الاستنساخ قد أصبح شائعا ومفهوما في الوقت الحالي فاللغة هي أداة الاستنساخ الاجتماعية الأولى في كل ثقافات الكون. فلكي نخلق إنجليز أو فرنسيين أو ألمان، لغات تلك الشعوب هي التي تستنسخ وتعيد إنتاج كائناتها. هذا الأمر ينطبق على اللغة العربية وعلى غيرها من لغات الكون. الوظيفة الأساسية للغة هي إعادة انتاج النوع الثقافي، كما أن الوظيفة الأولى للإنسان على الأرض هي إعادة انتاج النوع البشري. كل ما يلي ذلك تعبيرات أيديولوجية. اللغة ظاهرة اجتماعية- لا توجد لغة لذاتها؛ أي تتحقق اللغة عندما يتحقق الاجتماع البشري، ولا وجود للغة خارج كينونة الجماعة، لا ينشئ فرد لغة خاصة به إنما تنشأ اللغة كظاهرة اجتماعية.

اللغة، أيضا، هوية. فهي شكل من أشكال التمييز. يصبح الآخر آخرا لأنه لا يتكلم لغتي. على سبيل المثال، تقول العرب عن غير المتكلمين بالعربية (العجم). (العجمة) تعبير لغوي يعني عدم القدرة على النطق، وغالبا ما توصف الحيوانات بالعجمة. هذه في نهاية الأمر محاولة للتمييز بين الناطقين بالعربية وبين غير الناطقين بها.

التمييز موجود في كل لغات الكون. إذاً، كل لغات الكون تنشئ الهوية الثقافية للجماعة استنادا إلى مبدأ أساسي في تشكل الهوية. هذا المبدأ هو التمييز، أنا ما أنا لأنني لست أنت، فأنا بما أنا لأنني أتكلم اللغة العربية، وأنت لست أنا لأنك لا تتكلم لغتي، هذا هو المستوى الأول في تحديد مكونات الهوية.

اللغة العربية، من بين جميع لغات الكون تقريبا - إذا تعلق الأمر بالحضارات الكتابية (أي عندما نتكلم عن العشرين أو الثلاثين قرنا الأخيرة من وجود الإنسان على الأرض) هي أكثر لغات الكون المعروفة احتفاء بذاتها ورفعا لها من مقام لغة للتخاطب بين بشر إلى مقام دليل على زواج المقدس بالأرضي.

فعندما نقول، على سبيل المجاز، أن القرآن قد أنشأ حضارة، وانشأ أمة، فهذا صحيح. لأن علوم النحو والصرف ومختلف علوم الفقه والسيرة والتاريخ قد نشأت على هامش النص القرآني. كانت هناك مقاربات مستمرة ومحاولات دائمة لاستنفاذ دلالات هذا النص. ومن ناحية أخرى، إعتقد العربي، دائما، أن دليل عبقرية الخصوصية الثقافية العربية يتمثل في اللغة نفسها. وهذا وهم الهوية لأن لكل لغة خصوصية وعبقرية. لكن الواقع الذي رفع من مقام اللغة لتحويلها إلى دليل على عبقرية الجماعة وخصوصيتها في التاريخ تحول إلى خطاب لخطاب اللغة عن نفسها وإلى خطاب لخطاب الجماعة عن نفسها.

كيف يمكن أن نتكلم عن اللغة باعتبارها خطابا؛ مثلا عندما نتعلم «من علمني حرفا صرت له عبدا» أو «قم للمعلم وفه التبجيلا كاد المعلم أن يكون رسولا» هذه تعبيرات شائعة.

ليس في الواقع ثمة ممارسة للقمع أكثر من استخدام هذه الدلالات في العملية التربوية، بمعنى تحويل المعلم إلى سيد وتحويل المتعلم إلى عبد، وخلق صلة بين المعلم والرسول. منح الأول (المعلم) وهم أنه يؤدي وظيفة خالدة، وتكبيل الآخر (المتعلم) بدين مطلق وأبدي. هذا شكل من أشكال ممارسة اللغة كخطاب للقمع (فلا ينبغي أن ننتظر من ممارسي العملية التربوية ومن مستهلكيها محاولة للنفاذ خارج الدلالات المباشرة للمعلم أو العبد، من اجل الوصول إلى دلالة أعلى في جميع الأحوال).

فما هو خطاب القمع في حالة كهذه ؟

خطاب القمع - وهنا نخرج من حقل اللغة إلى حقل الاجتماع أو الإنثروبولوجيا

١- قدمت هذه المداخلة في اليوم الدراسي الذي عقده مركز القطان للبحث والتطوير التربوي بعنوان «اللغة العربية في المدرسة الفلسطينية» في نيسان 2000.

الثقافية – يتصل بالحفاظ على سمة أساسية من سمات المجتمع الأبوي البطريركي. (سلطة الأب). يمكن الوصول إلى هذا المدى في ثقافة لا وجود للأفراد فيها. يمكن، فقط، العثور على خطاب المعلم باعتباره سيدا والمتعلم باعتباره عبدا – حتى على سبيل المجاز– في سياق وهم ثقافة أبوية بطريركية تتكون من سلسلة من الآباء المحتملين.

النص التربوي أب أول، الأب بالمعنى الفيزيائي – البيولوجي أب، سيد القوم، أو رئيس البلد أو ملك البلد، وهذا يعرفه العرب جميعا، أب الجميع، ويخاطب بالأب القائد في أحيان كثيرة. النص الذي يعلم الطلاب في المدرسة لا يقل خطورة مجاز عن أبيهم القائد أو الأب بالمعنى البيولوجي، لأن الوظيفة الأساسية لهذا النص هي تكريس سلطة القمع الأبوي. والقمع الأبوي لا يتأسس إلا استنادا إلى مبدأين:

المبدأ الأول، الدفاع عن المنظومة البطريركية الدلالية للغة نفسها وتكريسها، والمبدأ الثاني تحويل الدلالات البطريركية إلى جزء من الفضائل الاجتماعية العامة. بهذا المعنى لا يمكن القول أن الكائن حينما يفكر بلغته – ولنقل أنه يفكر باللغة العربية مثلا– يستطيع أن يفكر بما لا ينبغي له أن يصله.

فمثلا حينما يقال بضرورة العودة إلى النموذج الذهبي في القرن الرابع الهجري، أو أننا نريد أن نقتفي سيرة أجدادنا، لا يمكن أن نتخيل مشروعا للمستقبل يجعل من مستقبلي ورائي. فالقرن الرابع أو الخامس ليسا مثلي الأعلى لأن الظاهرة التاريخية لا تقبل التكرار. مثلي الأعلى دائما أمامي.

فأنا لا أريد أن أكون كالأمويين أو العباسيين، إنما أريد العيش في قرني وفي زمني، وإنشاء هويتي الخاصة، لا أن أعيد إنتاج سيرة أجداد وهميين. أنا لا أعتقد أن الأمويين أو العباسيين أجدادي. كفلسطيني: أجدادي بالمعنى الثقافي والحضاري وربما العرقي أيضا، هم الناس الذين عاشوا على هذه الأرض دائما، منذ أقدم الأزمنة. هذا جزء من صراعي مع رواية الآخر الإسرائيلي الذي يعتقد بأنني أنتمي إلى الصحراء، بأنني أتيت مهاجرا في وقت ما، ويستكثر هذا المكان الذي أعيش فيه عليّ، هنا يأتي تسييس خطاب اللغة.

الدلالة الثانية بالنسبة للغة. إذا تكلمنا عن اللغة باعتبارها نظام للمراقبة والاستنساخ والضبط ـ في الدراسات الإنسانية والاجتماعية الحديثة ـ فنحن نتكلم في الواقع عن جملة مفاهيم، هذه المفاهيم ليست كيانات تاريخية، ليست كيانات متحققة دائما فحينما نتكلم عن هذه المفاهيم نتكلم عن قرنين أو اكثر قليلا. عندما نقول مثلا (الفرد) هذا لا يعني عدم وجود أفراد في التاريخ إنما الفرد كمفهوم اجتماعي وثقافي حديث تماما. مفهوم الفرد يتصل بفكرة الدولة القومية، والنظام الانتخابي، والمواطنة. كانت هناك دول على مر القرون. ولكن لم تكن الدولة قومية. عندما نتكلم عن دول قومية فإننا نتكلم عن القرنين الثامن عشر والتاسع عشر.

بالتالي عندما نتكلم عن الفرد أو الهوية أو اللغة أو الثقافة، بالمعنى الكبير، نحن نتكلم عن أشياء حديثة تماما. هل هذه المفردات قائمة ومتوفرة بالمعنى الدلالي في اللغة العربية ؟ أعتقد أنها غير قائمة. فاللغة العربية، بالمعنى الدلالي، لغة دلالات شرعية وتشريعية دائما، فعندما نقول كلمة (الحق) فنحن نشير إلى نظام تشريعي شرعي، إلى منظومة معرفة فقهية، ولكن حينما نقول بالمعنى الحديث؛ للفرد والمواطن (الحق) نشير في الواقع إلى الدستور والبرلمان والانتخابات، إلى منظومة تسم كل خصائص الدولة القومية الحديثة. هذا ينسحب بدوره على ما لا يحصى من دلالات تحدد علاقة الكائن بنفسه وبالآخرين.

> اللغة العربية، من بين جميع لغات الكون تقريبا هي أكثر لغات الكون المعروفة احتفاء بذاتها ورفعا لها من مقام لغة للتخاطب بين بشر إلى مقام دليل على زواج المقدس بالأرضي.

إذن، استنادا إلى مجمل هذه الملاحظات، إذا كانت ثمة ضرورة للتفكير في العلاقة بين اللغة والتفكير، وإذا كانت ثمة ضرورة للتفكير أو للطموح أن هذا الفهم يمكن أن يوظف أو أن يستخدم، وأن يكون مفيدا في صياغة مناهج تربوية جديدة، أنا اعتقد أن الموضوع الأساسي علمنة اللغة، تحديثها. ثانيا، تمكين اللغة من حيازة دلالات حديثة ومعاصرة بدلا من الحديث عن العبقرية العربية في حقول معينة. فعلى سبيل المفارقة مثلا قرأنا في المدارس عن الجاهليين والكرم. ليس صحيحا أن العرب اكثر كرما من غيرهم أو اكثر شجاعة، وليس صحيحا أنهم يتميزون بخصائص خالدة على رأي الشعار البعثي.

> فأنا لا أريد أن أكون كالأمويين أو العباسيين، إنما أريد العيش في قرني وفي زمني، وإنشاء هويتي الخاصة، لا أن أعيد إنتاج سيرة أجداد وهميين

الصحيح أن كل الشعوب تتشابه، وأنها تبدع، فنحن لسنا أفضل من الصينيين، لسنا افضل من اليابانيين الذين تمكنوا من إنشاء حضارة تكنولوجية هائلة في ثلاثة عقود من الزمن. لسنا افضل من أحد ولسنا أسوأ من أحد. نحن كالآخرين، ولهذا المبدأ أهميته الكامنة في ضرورة تفكيك التمركز المَرَضي حول الذات. نحن كغيرنا. تعلمنا مبالغات من نوع: «إذا بلغ الرضيع لنا فطاما تخر له الجبابر ساجدينا » هذا كلام فارغ. هذا، في الواقع، اعتداء على عقول النشء الصغير ومحاولة لخلق وعي زائف حول كينونة وهمية.

عندما نتحدث عن الحضارة العربية الإسلامية، نتحدث عن إسهام ثلاثة شعوب كبرى، ونعترف بإسهامها الكبير في هذه الحضارة: حضارة الفرس وهي حضارة كبيرة، ولها عبقريتها الخاصة، نتكلم عن الأتراك أيضا، وعن العرب. بهذا المعنى أوسع من حدود هويتي الثقافية كي لا اخلق هذا التمركز المرضي حول الذات، فقد أسهم أولئك بقدر كبير في الحضارة العربية ـ الإسلامية، وهم أقرب إلينا من ناحية ثقافية وحضارية من بقية شعوب الكون.

يجب أن أعترف لتلك الشعوب بأن لها حضارات مستقلة ذات كينونة واضحة، أسهمت في خلق هويتي. كان، دائما، هناك دور للفرس وعلمائهم، بالمعنى العرقي

لانتماءاتهم، كانت بخارى وسمرقند مراكز هائلة للحضارة العربية الإسلامية، إذن، يجب أن نعيد النظر في هذه الحضارات وأن نعترف للآخرين بإسهاماتهم، فلم يكن العرب أفضل من الفرس، حتى بالمعنى الفقهي الذي لا يعلي من شأن قوم على قوم إلا بدرجة إيمانهم. أيضا بالمعنى الثقافي، ليس ثمة شعب أفضل من شعب آخر أو حضارة افضل من حضارة أخرى، فنحن كالآخرين لسنا أفضل ولا أسوأ.

نتكلم، هنا، عن الدلالة التربوية. لا يمكن أن ننشئ منظومة ديمقراطية للتفكير إلا إذا كانت قائمة ومؤسسة على مبدأ الاعتراف بالآخر، التركي، الفارسي، وعلى عدم التمركز المرضي حول الذات. ومن ثم تحويل اللغة إلى وسيلة اتصال فعلا.

اللغة العربية تستخدم كوسيلة لإنتاج كائنات لا تنتمي إلى عصرها، يدرس الطالب في المدرسة كل أمجاد العرب، ويخرج إلى الشارع إلى أول حاجز إسرائيلي أمامه، أو يخرج إلى مجتمع لا يتسم بالفضائل على الإطلاق، وبالتالي فإن هناك نوعا من الفصام بين ما تحاول العملية التربوية أن تقوم به، وبين الوجود الموضوعي للكائن، لذلك نحن لا نستخدم اللغة العربية الفصحى في وجودنا اليومي. العربية الفصحى وجود بلاغي. نحن نستخدم لغة مختلفة تماما ودلالاتها مختلفة تماما في حديثنا اليومي وفي طرق الاتصال اليومية مع الآخرين عبر لغة أقل بلاغة هي اللغة العامية. لم يكن ظهور هذه اللغة أو تلك اللهجات مسألة اعتباطية، بل كانت محاولة للتحرر من الوجود البلاغي للغة الفصحى.

الفكرة الأخيرة التي أود الإشارة إليها تتمثل في أن نقاش اللغة العربية يمس بهويتي، ولا يجب أن نصدق وجود مؤامرة دولية تستهدف النيل من العرب بضرب لغتهم. يمكن ضرب العرب بطائرات الفانتوم وهذا ما يحدث دائما. أما ضرب اللغة فهذه مسألة قليلة الأهمية، فلا توجد لغة يمكن أن تندثر بهذا القدر من التبسيط. لا توجد لغة يمكن أن تكون موضوعا لمؤامرة. اللغة ظاهرة ثقافية، فطالما ظل هناك ثلاثة من العرب فسيتكلمون بلهجتهم الخاصة، وستبقى اللغة العربية.

الخلاصة، لا إمكانية لوجود الديمقراطية في وجودنا الاجتماعي دون تفكيك منظومة القمع الساكنة في صميم اللغة العربية نفسها، ولا إمكانية لتحويل وجودنا إلى وجود موضوعي، ولا إمكانية للانتصار دون أن نتحرر من جملة أوهام تحيط بنا أوهام تتعلق بالذات وبالهوية واللغة.

حسن خضر
كاتب ومترجم وصحفي، يعمل في وزارة الثقافة الفلسطينية ومجلة الكرمل.

مكتبة

مكتبة المركز مفتوحة للمعلمين والباحثين 5 أيام في الأسبوع

مختصة بالتربية والعلوم الاجتماعية وتاريخ فلسطين

يؤسس المركز لمكتبة متخصصة في التربية والعلوم الاجتماعية، وتاريخ فلسطين حيث تحتوي على كتب ومراجع ودوريات باللغتين العربية والإنكليزية، كما تحتوي على كتب المنهاج المدرسي في الضفة الغربية، عدد من كتب المنهاج اللبناني، وعدد من كتب المنهاج الإسرائيلي الذي يدرس للعرب الفلسطينيين. والمكتبة مصنفة حسب تصنيف ديوي العشري.

نظام الإفادة من المكتبة:

- تفتح من الساعة 8 – 4 باستثناء يومي الأحد والجمعة
- تستقبل المكتبة بشكل خاص المعلمين والمعلمات والباحثين.
- يمكن استخدام الكتب والمراجع والدوريات داخل المكتبة، وتعار فقط لموظفي المركز وباحثيه.
- يوجد بها جهازاكمبيوتر متصلان بشبكة الإنترنت حيث يمكن للمعلمين والمعلمات والباحثين الإفادة من هذه الخدمة دون مقابل، **وحسب التالي:**

1. الحجز المسبق.
2. يحق للرواد من المعلمين والباحثين استخدام الإنترنت لمدة ساعة واحدة فقط في اليوم (يمكن تخصيص وقت أكثر من ذلك إذا لم يكن هناك ضغط على الاستعمال).
3. يحق للرواد استخدام الطابعة واستخراج مواد من الإنترنت حتى ٢٠ صفحة.

لمزيد من الاستفسار والحجز الاتصال بأمين المكتبة على:
هاتف: 2963281 ، 2963282 – فاكس:2984886
Email: azmi@qattanfoundation.org